

كما سماها مؤرخنا الجبرتي - يدين بسلطانه لما أسبغ شيوخ الأزهر على ولايته من شرعية دينية وتأييد شعبي .

بل لم تكن نسيت أن الأزهر شارك بنفوزه ورجاله ، في ثورة عرابي الشعبية التي هزت الحديد وحماته الإنجليز هزاً .

فكانت المحاولة الجاهدة للاستئثار بالسلطان على الأزهر ، يستقل القصر بالإشراف عليه والاتصال به وتوجيهه وتعيين رجاله أو عزلهم ، ويتدخل لمقاومة كل حركة إصلاحية تنبعث من الأزهر أو تتجه إليه .

وتدخلت الأحزاب تلتمس وسيلة نفوذ إليه ، بل تدخلت سلطة الاحتلال تبتغي تأمين مركزها ، فاحتفلت بليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر ، ودعت شيوخ الأزهر لحضور ذلك الاحتفال الديني الكبير في قصر الحماية ! وما كان الأزهر ليشغل هؤلاء أو أولئك لو لم يكن بيئة ذات نفوذ خطير ، أثراً لسيادة الطابع الديني الذي فرض وجوده على السلطة ، فكان طلب العلم في الأزهر ، مهرباً من السخرة في عهود السخرة ، ومخلصاً من " الجهادية " أيام كانت تُفرض على من لا يملكون ، من أي سبيل ، تدير واحد وعشرين جنيتهاً فدية إغفاء من الخدمة العسكرية . كما كان الأزهر كذلك مفتوح الأبواب لطلبة العلم ( المجاني ) مع الظفر بجرابة يومية من الخبز تقيم أود الذين لا يجدون الرغيف . ثم هو طريق إلى نيل شيء من الحرمة والكرامة في عصر ضراوة الطبقة ؛ بالمهابة التي يضيفها العلم الديني على حملته ، في المجتمع الشعبي .

ثم إنه كان الذي يُورّد إلى الشعب وعناظه ومرشديه ومعلميه ، ومنه كان يخرج رسل الثقافة الدينية إلى شتى أقطار العالم الإسلامي الرحب .

وقد بدأت المرحلة وانتهت ، والأزهر حيث هو : مشغلة الحكام ومعترك الأهواء السياسية والحزبية ، والبيئة الفكرية الكبرى التي لا يمكن تجاهلها في رصد معالم ثقافتنا والثورة ، ولا الغفلة عن مكانها في الركب ، ومركزها في الموقعة ، وأثرها في عقلية الجماهرة من شباب الجيل ومناخها الفكرى .